دَلَالَةُ التَّوَاصُلِ فِي الدَّرْسِ اللُّغَوِيِّ الْعَرَبِيّ (دِرَاسَةٌ تَدَاوُلِيَّةٌ)

Connectivity in the Arabic Linguistic Lesson (Pragmatic Study)

د. فاتح مرزوق [1]/ المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف-ميلة / (الجزائر)/f.merzouk@centre-univ-mila.dz

تاريخ الاستلام: 11 / 10/ 2022 تاريخ القبول: 19 / 12 / 2022 تاريخ النشر: 31 / 12 / 2023

ملخص:

يتناول هذا البحث جانبا معلما أساسا من معالم الدّرس اللّغويّ عامّة، والجانب التّداوليّ خاصّة، ألا وهو التّواصل، هذا الرّكن الرّئيس في العمليّة التّخاطبيّة الّتي ترتكز على عنصري التّخاطب: المتكلّم والسّامع؛ لأنّ الدّراسات اللّغويّة ركّزت على هذا المبدأ؛ بداءة من وضع التّركيب العربيّ من خلال علم النّحو، مرورا بالمعنى في علم البلاغة الّذي يهتمّ بالسّياقات المختلفة الّتي ترد فيها هذه التّراكيب، والهدف منها إحداث التّفاعل والتواصل بين المتخاطبين؛ لأنّ التّركيب إذا خلا من التّواصل فلا فائدة ترتجى منه؛ ومن هنا اهتمّت التّداوليّة بعنصر التّواصل كونه يؤدّي وظيفة إيجابيّة أثناء التّخاطب، وهذا ما عملت على دراسته التّداوليّة هذا العلم الّذي يركّز على الفائدة الإخباريّة ومقامات الاستعمال المختلفة في العملية التخاطبيّة.

الكلمات المفتاحية :التّواصل، البلاغة، التّداوليّة، الخطاب.

Abstract:

This research deals with a key feature of the linguistic lesson in general, and the Didactic aspect in particular, namely communication, this main pillar in the conversational process is based on the two elements of communication: the speaker and the listener, because linguistic studies focused on this principle, starting from the development of the Arabic structure through the science of grammar, through the meaning in the science of rhetoric, which is concerned with the different contexts in which these compositions appear, and the aim is to bring about interaction and communication between the interlocutors, because if the composition is devoid of communication, there is no use Hence, Pragmatic attention to the element of communication as it performs a positive function during communication, and this is what I worked on studying pragmatic this science, which focuses on the benefit of news and the various places of use in the conversational process.

***Keywords**: Communication; Rhetoric; Pragmatic, Discourse.*

المؤلف المرسل : د. فاتح مرزوق: f.merzouk@centre-univ-mila.dz

مقدمة:

اهتمّ العلماء بمقضيّة التّواصل؛ كونها محورا رئيسا في العلميّة التّخاطبيّة بين عنصرين مهمّين هما: المتكلّم والسّامع؛ لأنّ المتكلّم عندما يعمد إلى الكلام؛ فإنّه دون ريب يريد أنْ يُوصل فائدة إخباريّة أو له مقصد من وراء كلامه، وإلاّ عُدّ كلامه ضربا من الخطل والمطل لا فائدة تُرْتجى منه، وهنا نجد السّامع هو الآخر على دراية ممّا هو حاصل من المتكلّم؛ لأنّ الحلقة التّخاطبيّة لا تتمّ فائدتها إذا لم يتم تفاعل وتواصل إيجابيّ بين طرفي التّخاطب. وهذا ما كزت عليه الدّراسات اللّغويّة القديمة خاصّة، وكذا الدّرس اللّغويّ الحديث عامّة.

فالدّرس اللّغويّ العربيّ قديما ركّزا على جانب التّواصل كونه يؤدّي وظيفة إخباريّة، ونجد هذا الأساس في النّحو، وكذا البلاغة العربيّة؛ لأنّ النّحو يعتمد على أنماط مختلفة من التّراكيب اللّغويّة الّتي تكون مشحونة بدلالات ولمحات لها أغراضها ومعانيها.

وحقيق بالذّكر أنّ الدّراسات اللّغويّة الحديثة أولت اهتماما كبيرا بالتّواصل في جانبها التّداوليّ؛ أيْ التّفاعل التّخاطبيّ القائم بين المتكلّم والسّامع/ المرسل والمرسل إليه، وهما عنصران أساسان في العمليّة التّخاطبيّة؛ لأنّ حلقة التّخاطبيّة إذا أفرغت من محتواها التّواصليّ فلا فائدة ترتضى منها، لذا نلحظ أنّ التّخاطب الّذي يخلو من المقاصد المنشودة؛ دليل على أنَّ الحلقة التّواصليّة باءت بالفشل، وأصابها الكلل والفشل، وضاع المقصد، وفشل المورد.

1. **المقصد من التّواصل:** يبنى التّواصل في دلالته الأولى على اللّغة، واللّغة كما حدّها ابن جنّى قائلا "أمّا حدّها عبارة عن أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضها"[1] والظّاهر من هذا القول أنّ اللّغة تعتمد على التّعبير وتحديد الأغراض، وهذا دليل على أنّ اللّغة ترتكز على ركنين مهمّين في تحديد الأغراض وهما: المتكلّم والسّامع (الملقي، والمتلقّي) وإلاّ فإنّ عمليّة التّواصل لا تتمّ بشخص ذاته؛ لذا نجد العلماء البلاغيّين يركزون على التّواصل من المفهوم البلاغيّ؛ حيث يشير (ابن سنان الخفاجي) إلى التّواصل في معرِض حديثة عن المفهوم للبلاغة؛ إذ يقول: "يكفي من حظّ البلاغة ألاّ يؤتى السّامع من سوء فهم النّاطق، ولا النّاطق من سوء فهم المتكلّم"[2] البيّن ها هنا أنّ البلاغة من مرتكزاتها العلميّة الاعتماد على الفهم؛ حتى يتمّ التّواصل.

وما يدلّ على أهميّة التّواصل في الحلقة التّخاطبيّة؛ ما أشار إليه إمام النّحاة (سيبويه) وهو يتحدّث في قضيّة مهمّة في الدّرس اللّغويّ وهو الكلام والإفادة، وكيف يُبنى هذا النّوع من التّواصل؛ حيث يقول:

"فأمّا الحسن المستقيم فقولك: أتيتك أمس، وسآتيك غدا؛

وأمّا المحال فأنْ تنقض أوّل كلامك بآخره فتقول أتيتك غدا، وسآتيك أمس؛

وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر ونحوه؛

[1] ابن جنّي، الخصائص، ص33

[2] ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ص61

وأمّا المستقيم القبيح فانْ تضع اللّفظ في غير موضعه؛ نحو قولك: قد زيدا رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشبه هذا؛

وأمّا المحال الكذب فأن تقول: سوف أشرب ماء البحر أمس"[3] إنّ ما ذهب إليه (سيبويه) يدلّ على أنّ الكلام الصّحيح ذو الفائدة المرجوّة، والّذي يعتمد على الاستقامة التّركيبيّة والمعنويّة؛ فالتّركيب الصّحيح نحويّا ينتج عنه التّركيب الصّحيح معنى؛ لذا نجد هاهنا يربط ما بين التّركيب النّحويّ والمعنى البلاغيّ، لأنّ المنشود والمقصود هو التّواصل بين الملقي والمتلقّي؛ فإذا تمّت الاستقامة تمّ التّواصل، وإذا غابت الاستقامة غاب معها التّواصل.

ومن هنا عدّ التّواصل من أسس العمليّة التّبليغيّة الإبلاغيّة الّتي تقوم على الفهم والإفهام الّذي من معالمه البيان وهنا نجد (الجاحظ) يبين عن هذا المراد بقوله: "...لأنّ مدار الأمر والغاية الّتي إليها يجري القائل والسّامع إنّما هو الفهم والإفهام؛ فبأيّ شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[4].

أضف إلى أنّ التّواصل عند العلماء الأوائل نظروا إليه من كلّ الزّوايا الحديثة المعروفة مثل (الرسالة) الّتي تتمّ بين المتكلّم والسّامع في سياقات ومقامات مختلفة وهو معروف عندهم بـ: (مقتضى الحال) وقد بيّنه الإمام السّكاكي قائلا: "لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التّشكّر يباين مقام الشّكاية، ومقام التّهنئة يبان مقام التّعزية، وارتفاع شأن الكلام من باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به وهو ما نسمّيه: مقتضى الحال"[5].

وسنحاول أنْ نبين موقع التّواصل من خلال هذه التّرسيمة[6]:

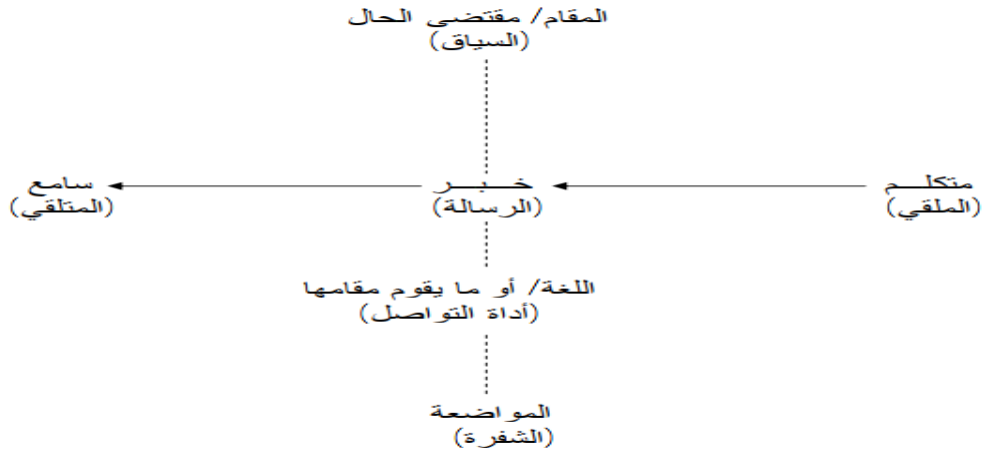

[3] سيبويه، الكتاب، ج1، ص25 فما بعدها.

[4] الجاحظ، البيان والتّبين، ص76

[5] السّكاكي، مفتاح العلوم، ص 168 فما بعدها.

[6] سليم حمدان، أشكال التّواصل في التّراث البلاغيّ العربيّ (دراسة في ضوء اللّسانيّات التّداوليّة) مذكّرة ماجستير في لسانيّات الخطاب، إشراف محمد بوعمامة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008–2009، ص9

وممّا نخلص إليه أنّ التّواصل عمليّة بلاغيّة إبلاغيّة لقيت حظها من الدّراسة عند العرب؛ كونها وسيلة المهمّة بين المتكلّم والسّامع؛ فحيثما تمّ الإبلاغ والإفهام والإمتاع، فلا شكّ ولا ريب قد وصلنا إلى ذروة التّواصل ومن بَعْدُ التّفاعل التّخاطبيّ.

2- التّواصل من منظور بلاغيّ: ومن القضايا التّداوليّة الّتي بثثت في دراسة القدماء قضيّة (التّواصل) والّتي قد كان منطلقها الأساس والرّئيس في تعريف اللّغة عند القدماء؛ فقد عرّف (ابن جني) (392هـ) اللّغة بقوله: "أمّا حدّها فأصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم"[7]فقد ركّز ابن جنّي على القوم؛ أي الجماعة، وهي صفة بارزة في التّواصل؛ ومن ثَمَّ عمليّة التّبليغ قائمة بينهم لا محالة. والغرض منها هو التّبليغ وتأدية الأغراض والمآرب، وعليه يتكوّن لنا من هذا التّواصل عنصران أساسان هما: المرسل والمرسل إليه/المتكلّم والسّامع.

والأمر ذاتُه عند **(ابن سنان الخفاجيّ)** حيث نظر للّغة على أنّها تحوي على عمليّة تبليغيّة؛ لذا عدّها شرطا أساسًا في البلاغة لا تنخرم ولا تنفصم ولا تنفصل عنه البتة؛ حيث يقول: "ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام ظاهرا جليّا لا يحتاج إلى فكر في استخراجه، وتأمّل لفهمه والدّليل على صحة ما ذهبنا إليه أنّ الكلام غير مقصود في نفسه، وإنّما احْتِيج ليعبّر النّاس عن أغراضهم، ويفهموا المعاني الّتي في نفوسهم"[8]. وكما سبق وأن أشرت فقضيّة التّواصل عند العرب لقيت حظّها الأوفر من الدّراسة؛ كونها تعلّقت بعنصرين مهمّين في العمليّة التّواصليّة (المتكلّم والسّامع) وعليهما ركّز الخفاجيّ شريطة ألاّ يكون الكلام القائم بينهما عَبَثا، فلا بدّ من توافر عنصر الإفهام والإبلاغ، وإلاّ أضحى الكلامُ ضربًا من الهذرمة والحذلقة الّتي لا جدوى منها يقول (محمّد بوعمامة): "وهكذا نجد أنّ حاجة الإنسان إلى اللّغة شرط من شروط تواصله مع الآخرين"[9].

والجدير بالذّكر أنّ التّواصل عند قدماء العرب انبرى من تعريفهم للبلاغة؛ وهذا يدلّ على أنّه كلّما وردت البلاغة ذروتها من الإبلاغ والتّبليغ، كلما ائتلق وائتلف التّواصل قمّة الإفهام والإمتاع يقول (أبو يعقوب السّكاكي) في تعريفه للبلاغة، وكيفيّة بناء التّواصل عليها: "هي بلوغ المتكلّم في تأدية المعاني حدّا له اختصاص بتوفيه خواص التّركيب حقها"[10].

ومن البلاغيّين الّذين بَنَوا رواسيَ التّواصل وحدّدوا عناصره (الجاحظ) وهو في خضمّ الحديث عن البيان في المعاني؛ إذ يقول: "والبيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك عن قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضّمير؛ حتى يفضي السّامع إلى حقيقته ويهجم على حصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أيّ جنسٍ كان ذلك

---

[7] - أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، ص33.

[8] – ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ط1. بيروت: 1982، دار الكتب العلميّة، ص 220 فما بعدها.

[9] – نفسه، ص220.

[10] – السّكاكي، مفتاح العلوم، تح، نعيم زرزور، ط2. بيروت– لبنان: 1983، دار الكتب العلميّة، ص415.

الدّليل؛ لأنّ مدار الأمر والغاية التيّ يجري عليها القائل والسّامع؛ إنّما هو الفهم والإفهام؛ فبأيّ شيء بلغت، وأوضحت عن المعنى؛ فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[11]؛ فالجاحظ من خلال متنه يبيّن لنا عناصر العمليّة التّواصليّة وهي (المتكلّم والسّامع والرّسالة والشّفرة).

ولكنِ (الجاحظُ) ما كان حسبه هذا وكفى، وإنّما راح يُخرج التّواصل من المؤتلف ذات المنطوق إلى دائرة يّتسع لها المعنى من كلّ جوانبه؛ فراح يعدّها بخمس عدّا بقوله: "جميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياءَ، لا تنقص ولا تزيد، أوّلها اللّفظ ثم الإشارة ثم الخطّ ثم الحال الّتي تسمّى: نصبةً"[12]. فالتّواصل ممّا هو جليّ عند (الجاحظ) ليس منوطا بالمنطوق فقط؛ بل الكتابة والّتي عبّر عنها (بالخطّ) أضف إلى الإشارة والحال القائم على التّأمّل.

وعليه؛ فكلّ ما أتى به (الجاحظ) من عناصرَ تواصليّةٍ مطروقة عند معاصريه؛ فالرّسالة مثلا هي الخبر الّذي يتمّ نقله بيم المتكلّم والسّامع، والّذي عُرف عند علمائنا البلاغيّين باسم "المقام/ مقتضى الحال" وهذا ما أدلى به (السّكاكيّ) حين قال: "لا يخفى عليك أنّ مقامات الكلام متفاوتة فمقام التّشكّر يباين قام الشّكاية ومقام التّهنئة يباين مقام التّعزية وارتفاع شّأن الكلام من باب الحسن والقَبول وانحطاطه في ذلك بحَسَب مصادفة الكلام لما يليق به وهو ما نسمّيه: مقتضى الحال"[13].

وممّا نخلص إليه أنّ التّواصل عمليّة بلاغيّة إبلاغيّة لقيت حظها من الدّراسة عند العرب؛ كونها وسيلة المهمّة بين المتكلّم والسّامع؛ فحيثما تمّ الإبلاغ والإفهام والإمتاع، فلا شكّ ولا ريب قد وصلنا إلى ذروة التّواصل ومن بَعْدُ التّفاعل التّخاطبيّ.

3- المقصد من التّداوليّة: التّداولية" هي مذهب لسانيّ يدرس علاقة النّشاط اللّغويّ بمستعمليه، وطرق وكيفيّات استخدام العلامات اللّغويّة بنجاح، والسّياقات والطّبقات المقاميّة المختلفة الّتي ينجر ضمنها الخطاب"[14]. فمن خلال ربّما هذين اللّمحتين دالتين يمكننا أن نقول: إنّ ثمّة شذرات وبعض اللّمحات الّتي أسهم فيها علماؤنا النّحاريرُ الأوائلُ، فالدّراس لهذا العلم الحديث بكلّ رويّة وتُؤدة وتمعّن سيدرك أنّ أيدي الجهابذة منغمسة في الموروث البلاغيّ قد أشارت له وعُنِيَت به أيّما عناية؛ لذا يرى الباحث مسعود صحراويّ "أن استثماره؛ أي التّحليل التّداوليّ في قراءة الإنتاج العلميّ لعلمائنا القدامى سيُسهم أيضا في اكتشاف وتثمين جوانب من جهود الجبارة الّتي بذلها أولئك العلماء الأجلاّء"[15].

4- **قواعد التّواصل ودلالاته الوظيفيّة:** يعتمد التّواصل في العمليّة الإبلاغيّة التّواصليّة على قواعد وأركان أساس؛ حتّى تتمّ الفائدة المنشودة من التّواصل.

---

[11] – الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، ط7. القاهرة: 1998 مكتبة الخانجي، ج1، ص76.

[12] – الجاحظ، البيان والتّبيين، ج1، ص76.

[13] – السّكاكي، مفتاح العلوم، ص168 فما بعدها.

[14] - مسعود صحراوي، التّداوليّة عند علماء العرب (دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربي)، ط1. بيروت:2005، دار الطليعة، ص5.

[15] - مسعود صحراوي، التّداوليّة عند علماء العرب (دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربي)، ص6.

1.4.القصديّة: ولمّا كان للكلام مقصدٌ من لَدُن المخاطَب؛ لقي أهميّة بالغة من لدن الدّارسين في شتّى العلوم التي تتعلّق بلغة الخطاب؛ وذلك إيمانا منهم بأنّ المقاصد لبّ العمليّة التّواصليّة؛ لأنّ لا وجودَ لأيّ تواصلٍ عن طريق العلامات دون وجود قصديّة وراء فعل التّواصل ودون وجود إبداع أو على الأقل دون وجود توليف للعلامات. فقد رأى (سيرل) بأنّ المقاصد ذات تكوين بيولوجيّ ولها أطر معيّنة في ذهن المرسل، وعليه ففلسفة اللّغة عنده تعدّ فرعا من فلسفة العقل.

وغاية المرسل هي إفهام المرسل إليه، ويشترط ليعبّر المرسل عن القصد الّذي يوصل إليه؛ أن يمتلك اللّغة في مستوياتها المعروفة، ومنها المستوى الدّلاليّ؛ وذلك بمعرفة العلاقة القائمة بين الدّوال والمدلولات، وكذلك بمعرفته بقواعد تركيبها وسياقات استعمالاتها، وعلى الإجمال معرفته بالمواضعات الّتي تنظّم إنتاج الخطاب"[16].

2.4. السّياق: إنّ من أهمّ المرتكزات الّتي قام عليها التّحليل التّداوليّ قضيّة (السّياق) كونها منوطة بالاستعمال كما أنّها تسهم في تحليل الوَحْدات اللّغويّة سواء أتعلّق الأمر بالجملة أم الكلمة أم خطابا، فلولا السّياقُ لما فهمنا المعنى المرجوّ من أيّ كلام يتلفّظ به، أضف إلى أنّك لا تستطيع أن تبديَ سرائر الخطاب ومكنوناته الجماليّة؛ فلذلك لابدّ أن لا ننسى بأنّ السّياق قد عُني به قديما وحديثا، والدّاعي إلى ذلك إنّه حَلْقة من حلْقات التّواصل، ولا خيرَ من دليل إلاّ ما قد أسبكه "الجاحظ" في كتابه (البيان والتّبيين) حيث يقول مبيّنا أهميّة السّياق: "ينبغي للمتكلّم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبن أقدار الحالات؛ فيجعل لكلّ طبقة من ذلك كلاما ولكلّ حالة ذلك مقاما؛ حتّى يقسّم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسّم المعاني على قدر المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات"[17].

ومدار كلام (الجاحظ) يدلّ على أنّ المتكلّم لابدّ أن يراعيَ طبقات الكلام بِحَسَب المقامات الكلاميّة فعلى المتكلّم أن يوجز في مقام الإيجاز ويطنب في مقام الإطناب ويقدّم ويؤخّر في مقام ذلك؛ حتّى يفيد سامعه ويقنعه، وأن يصل به إلى مرتبة الكفاية الإبلاغيّة.

إذاً (الجاحظ) يخطو على خطى الإمام السّكاكيّ؛ حيث يقول مبديا رأيه في أهميّة السّياق وأنواعه "ثم إذا شرعت في الكلام؛ فلكلّ كلمة مع صاحبتها مقام، ولكلّ حدّ ينتهي غليه الكلام مقام... وارتفاع شأن الكلام في (باب الحسن والقَبول) وانحطاطه في ذلك بِحَسَب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو ما نسمّيه بمقتضى الحال"[18] فالسّكاكيّ من خلال هذا المتن يشير إلى نوعين من أنواع السّياق؛ سياقٍ خاصّ بمقامات الكلام؛ وهو ما يطلق عليه (بالسّياق المقاميّ) وسياقٍ آخرَ منوط بالتّركيب اللّغويّ وهو ما يطلق عليه (بالسّياق اللّغويّ).

وأمّا بخصوص السّياق اللّغويّ: فهو مجموعة تلك العلاقات الدّاخليّة الّتي تتحكّم في دلالة النّص والخطاب أو حتّى الجملة؛ فكلّ نَتاج لغويّ لا يمكن أن يكون رصفا ميكانيكيّا للوَحْدات المكوّنة له فحسب؛ بل يجب أيضا مراعاة القوانين الدّاخليّة الّتي تسهم كثيرا في تماسك هذه الوَحْدات وترابطها من اجل تحقيق غايتها.

---

[16] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة، ص183.

[17] - الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السّلام محمد هارون، مصر: 1960 مكتبة الخانجي، ص139.

[18] - السّكاكيّ، مفتاح العلوم، ص256.

إذًا المعنى مهمّ في تحديد جانب السّياق اللّغويّ؛ فنحن دائما نُنْكس دراستِنا إلى فهم السّياق؛ وبخاصة في القرآن الكريم؛ فأنت لا تستطيع أن تحكم على آية قرآنيّة إلاّ إذا حدّدت سياقها الّذي وردت فيه، والظّروف الّتي نزلت فيه هذه الآية ولنا أمثلة كثيرة من ذلك كقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ [عبس: 1].

فالمتمعّن في هذه الآية يجد أن الفعل [عبَس] لم يرد بالتّضعيف؛ أي [عبّس] لأنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم نظر في عبد الله بن مكتوم بطرف العين؛ ولو نظر إليه بالعين كلّها لنزلت (عبّس)؛ ومثله قوله تعالى: ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ الأعراف: [الآية132] فأنت إذا أمعنت النّظر وأجللت التّدبر ستجد أنّ الوَحْدات اللّغويّة لها علاقة في ما بينها فقد استعملت(مهما) والّتي تدلّ على الإصرار عكس(حيثما، وكيفما) أضف أنّ هذا الفعل أتى بعده فعل [تأتنا] والّذي يدلّ على الاستمراريّة في الإصرار على التّعنّت، ثم العجب العجاب من ذلك أن تُدْعَم بجملة اسميّة [فما نحن] والّتي تدلّ على الثّبوت في الإصرار، وعدم الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ويختمها [بالباء الزائدة] والّتي تدلّ على تأكيد الإصرار، وعلى عدم الإيمان بالرّسول صلى الله عليه وسلم وحده لأنّهم قالوا: (لك).

وكلّها وَحْدات لغويّة لها دَلالة، وبخاصّة إذا سُبكت وحُبكت ببعضها البعض لكي تُخرج لنا سياقا لغويّا يتحدّد المعنى من خلاله؛ ولهذا فإنّ (فيرث) يرى أنّ: "المعنى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييق الوَحدة اللّغويّة؛ ووضعها في سياقات مختلفة؛ فمعظم الوَحْدات الدّلالات تقع في مجاورة وحدات أخرى؛ وأنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى الّتي تقع مجاورة لها"[19].

وممّا يظهر من خلال قول (فيرث) أنّ الكلمة لا نَفَسَ لها خارج السّياق؛ فالسّياق هو الفاصل المعنويّ بالنّسبة لها، كما أنّها تصبح قويّة الدَّلالة؛ إذا اتَّسقت مع الوَحْدات اللّغويّة الّتي تجاورها؛ وحينئذ يفهم معنى تلك الوَحْدات، و تشكّل بعدئذ البناء اللّغويّ.

وعليه؛ فالمخاطِب إنّما يتكوّن خطابه بقدر قصده التّواصليّ؛ أي اللّفظ المقصود في الموضع المنشود، "إلى جانب مقاصده التّواصليّة الموضعيّة من كلّ قول ينتجه قصدا تواصليّا إجماليّا يتعلّق بمجموع خطابه"[20].

[19] - أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ط2. مصر: 1988، عالم الكتب ص68 فما بعدها.

[20] - آن ربول، جاك موشلار، التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشّيباني، ط1. بيروت: 2003، دار الطليعة للنشر والتّوزيع، ص206.

علاقة التّواصل بنظريّة النّظم:

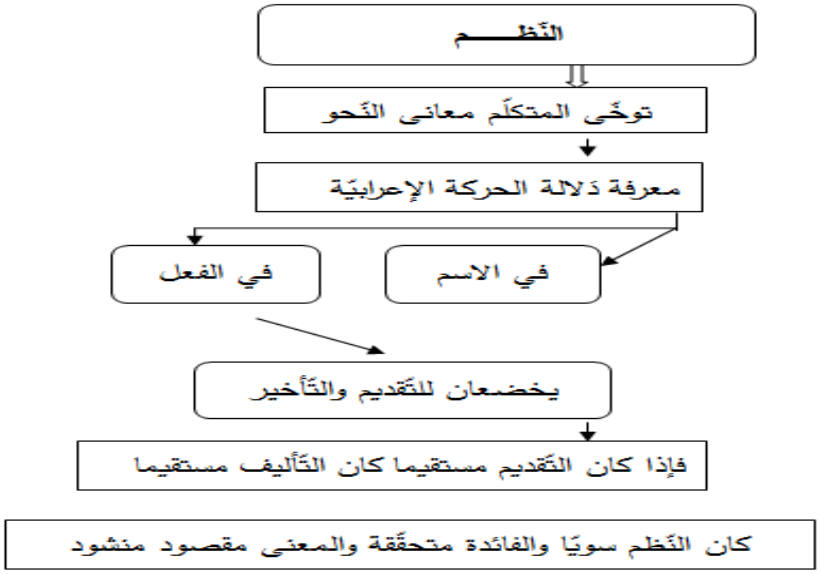

إذًا أهميّة المتكلّم مستقرّةٌ كائنة عند الجرجانيّ؛ فهو الباعث في حلقة التّواصل؛ فالمتكلّم إذا ملك ناصية قواعد التّقديم والتّأخير أستطاع أن يبلّغ رسالته؛ وهنا تكمن العلاقة بين النّحو بالبلاغة من خلال طريقة نظمك في الكلام؛ فهب أنّي قلت: "الشّعرَ حفظتُ" فطريقة نظمك للجملة انطلقت من التّركيب النّحويّ لخدمة المعنى، ولمعنى مقصود يريد المتكلّم أن يوصله للسّامع؛ فالحركة الإعرابيّة حدّدت لك معنى وهو إمّا أنّك مسرور؛ لأنّك حفظت الشّعر؛ وإمّا أنّ شخصا قال لك: أنت لا تحفظ الشّعر فأردت أن تبشره بحفظك الشعرَ؛ أضف أنّ اختيار الحركة الإعرابيّة مهمّ وهي(الفتحة) والّتي تدلّ على القطع.

فأنت في نظمك في هذه الجملة؛ إنّما اجتبيت نمطا معيّنا من أساليب العرب؛ وهو التّقديم والتّأخير؛ وفي النّظم نفسه اخترت نمطا معيّنا من الجمل وهو الجملة الفعليّة دون الاسميّة؛ لذا أقرّ الجرجاني بوعي السّامع بقواعد اللّغة ومعاني الألفاظ، فكلما كان السّامع عالما بها كلما كانت الرّسالة سهلة الوصول مرجوّة الفائدة حيث يقول: "لا يخلو السّامع من أن يكون عالما باللّغة وبمعاني الألفاظ الّتي يسمعها مستطلعا أو يكون جاهلا بذلك، فإن كان عالما لم يتصوّر أن يتفاوت حال الألفاظ معه فيكون معنى اللّفظ أسرع إلى قلبه من معنى لفظ آخر، وإن كان جاهلا كان ذلك في وصفه أبعد"[21].

فقول (الجرجانيّ) ليس بالأمر البعيد؛ فلنا في ذلك أمثلة في الّذين تصدّوا للرّسول صلّى الله عليه وسلم، سواء البلغاء منهم أم الشّعراء، فهم حين ملكوا ناصية البيان، عجزوا حائرين منتكسين بلا لسان؛ لأنّهم أهل فصاحة وبيان، والبليغ لا يدرك قيمتة إلاّ البليغ، فهذا إنّما يشبّهنا بأن تقول لأعمى: هل ترى النّجوم؟ إنّه الهتان بحق وحقيق؛ لذا فإنّا لا نتعجّب حين نسمع (الحجّاج بن يوسف الثقفيّ) يجزي فتيانا بدراهم، لأنّه استقرّ باهرا حائرا في فصاحته أضف هو الآخر بلغ مرتبة الفصاحة والبيان وقوّة في اللّسان. وكثيرا ما تحدث هذه المواقف في مجالس الخلفاء؛ فممّا يروى أنّ أحد الخلفاء تكلّم في مجلسه غلام صغير؛

[21] - عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص180.

فزجره فقال: يا صبيّ تتكلّم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنْ كنت صبيّا، فلست بأصغرَ من هدهد سليمان، ولا أنت أكبر من سليمان عليه السّلام حين قال: أحطت بما لم تحط به، ثمّ قال: ألم ترَ أنّ الله فهّم الحكم سليمان، ولو كان الأمر بالكبر لكان داود أولى. فالشاهد في القصّة لو لم يفهم الأمير كلام الغلام لسجنه، ولو لم يكن الأمير بليغا لما فهم بلاغة الغلام.

ونخلص ممّا سبق أنّ التّقديم والتّأخير يقوم على أعمدة النّحو لخدمة المعنى والغرض والمقصد، وهو من قواعد البلاغة، فما دام أن النّحو هو القصد الّذي تتوخاه الحركة الإعرابيّة؛ فهي تؤدّي المعنى البلاغيّ؛ فالقصد حينئذ من الحركة هو الإبلاغ والإفصاح عمّا في النفس وأنت لا تفصح إلا لأنّك تريد أن تفيد سامعك، وتقنعه بالمراد الّذي تريد أن ترد إليه. وهي بحقيق الفائدة المنشودة من الحركة الإعرابيّة ومتغيّراتها بالأنماط المختلفة من خلال التّقديم والتّأخير.

الخاتمة: تعدّ قضيّة التّواصل من القضايا الأساسيّة المعروفة في الدّرس اللّغويّ؛ كونها ارتبطت بالعمليّة التّبليغيّة والفهم والإفهام، أضف إلى أنّها اتّصلت اتّصالا مباشرا التّفاعل التّخاطبيّ بين المتكلّم والسّامع كونهما عنصرين أساسين في حلقة التّخاطب الّتي ركّزت عليها الدّراسة التّداوليّة كونها تراعي الاستعمال اللّغويّ في كلّ المقامات والسّياقات ، والّتي تبنى أيضا على المقصديّة الكلاميّة.

الهوامش والإحالات:

[1] أبو الفتح عثمان بن جنّي، الخصائص، تح: محمد علي النّجار، المكتبة العلميّة.

[2] ابن سنان الخفاجي، سرّ الفصاحة، ط1. بيروت: 1982، دار الكتب العلميّة.

[3] سيبويه، الكتاب، ج1.

[4] الجاحظ، البيان والتّبيين، تح: عبد السلام هارون، ط7. القاهرة: 1998 مكتبة الخانجي، ج1.

[5] السّكاكي، مفتاح العلوم، تح، نعيم زرزور، ط2. بيروت- لبنان: 1983، دار الكتب العلميّة.

[6] سليم حمدان، أشكال التّواصل في التّراث البلاغيّ العربيّ (دراسة في ضوء اللّسانيّات التّداوليّة) مذكّرة ماجستير في لسانيّات الخطاب، إشراف محمد بوعمامة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008–2009.

[7]- مسعود صحراوي، التّداوليّة عند علماء العرب (دراسة تداوليّة لظاهرة الأفعال الكلاميّة في التّراث اللّسانيّ العربي)، ط1. بيروت:2005، دار الطليعة.

[8] - عبد الهادي بن ظافر الشّهريّ، استراتيجيّات الخطاب مقاربة لغويّة تداوليّة.

[9] - أحمد مختار عمر، علم الدّلالة، ط2. مصر: 1988، عالم الكتب .

[10]- آن ربول، جاك موشلار، التّداوليّة اليوم علم جديد في التّواصل، تر: سيف الدين دغفوس ومحمد الشّيباني، ط1. بيروت: 2003، دار الطليعة للنشر والتّوزيع.